الصباح الإسلامية
09
العدد 1642 - السنة السادسة
الاربعاء 13 شوال 1434 - الموافق 21 اغسطس 2013
Wednesday 21 August 2013 - No.1642 - 6th Year

الأمر كلف النبي آلاما لا تطاق والأمة المسلمة تجربة شاقة في تاريخها الطويل

حادثة الإفك.. نموذج من القذف يكشف شناعة الجرم وسوء تدبير المنافقين

«إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12)»

بعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته وهو يتناول بيت النبوة الطاهرة الكريم، وعرض رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أكرم انسان على الله، وعرض صديقه الصديق أبي بكر – رضي الله عنه – أكرم انسان على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعرض رجل من الصحابة – صفوان بن المعطل رضي الله عنه – يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه الا خيرا.. وهو يشغل المسلمين في المدينة شهرا من الزمان.

ذلك هو حديث الافك الذي تطاول الى ذلك المرتقى السامي الرفيع:

هذا الحادث حادث الافك قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقلب زوجة عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل، شهرا كاملا. علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق.

فلندع عائشة – رضي الله عنها – تروي قصة هذا الألم، وتكشف عن سر هذه الآيات:

عن الزهري عن عروة وغيره عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وانه أقرع بيننا في غزاة فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، وأنا أحمل في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، حتى جاوزت الجيش. فلما قضيت من شأني أقبلت الى الرحل، فلمست صدري، فاذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم، وانما ناكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج، فحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي، بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم، وليس فيه أحد منهم، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون الي، فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي. ثم الذكواني. قد عرس وراء الجيش، فادلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد انسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني. وكان يراني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما يكلمني بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعد ما نزلوا معرسين.

قالت:فهلك في شأني من هلك. وكان الذي تولى كبر الاثم عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الافك ولا أشعر. وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي –صلى الله عليه وسلم– اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، انما يدخل فيسلم ثم يقول:كيف تيكم؟ ثم ينصرف. فذلك الذي يريبني منه، ولا أشعر بالشر حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط. فاقبلت أنا وأم مسطح – وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب – حين فرغنا من شأننا نمشي، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها:بئسما قلت. اتسبين رجلا شهد بدرا؟ فقالت:يا هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ فقلت:وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الافك، فازدت مرضا الى مرضي. فلما رجعت الى بيتي دخل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال:كيف تيكم؟ فقلت:ائذن لي أن آتي أبوي. وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. فاذن لي، فاتيت أبوي، فقلت لأمي:يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها. فقلت:سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت:فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد – رضي الله عنهما – حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. قالت:فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم. فقال أسامة:هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله الا خيرا. وأما علي بن أبي طالب فقال:يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك. قالت:فدعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بريرة فقال لها:أي بريرة. هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ فقالت:لا والذي بعثك بالحق نبيا ان رأيت منها أمرا اغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. قالت:فقام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من يومه، واستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. فقال وهو على المنبر:من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا، وما كان يدخل على أهلي الا معي قالت:فقام سعد بن معاذ – رضي الله عنه – فقال:يا رسول الله أنا والله أعذرك منه ان كان من الأوس ضربنا عنقه، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة – رضي الله عنه – وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن حضير رضي الله عنه وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة:كذبت – لعمر الله – لنقتلنه، فانك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان – الأوس والخزرج – حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ونزل.

وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي اذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي فبينما نحن كذلك اذ دخل علينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى اليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس، ثم قال: «أما بعد فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي اليه، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله تعالى عليه». فلما قضى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة فقلت لأبي:أجب عني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيما قال، قال:والله ما أدري ما أقول لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقلت لأمي:أجيبي عني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيما قال. قالت:والله ما أدري ما أقول لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن. فقلت:اني والله أعلم أنكم سمعتم حديثا تحدث الناس به، واستقر في نفوسكم، وصدقتم به. فلئن قلت لكم:اني بريئة لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقنني. فوالله مما أجد لي ولكم مثلا الا أبا يوسف اذ قال: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون». ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها. فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله تعالى على نبيه –صلى الله عليه وسلم– فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، فسري عنه، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله تعالى فانه قد برأك. فقالت لي أمي:قومي الى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقلت:والله لا أقوم اليه، ولا أحمد الا الله تعالى، هو الذي أنزل براءتي. فأنزل الله تعالى: ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم.. العشر الآيات فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره:والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة – رضي الله عنها – فأنزل الله تعالى: ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة.. الى قوله «والله غفور رحيم» فقال أبو بكر – رضي الله عنه – بلى والله اني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع الى مسطح النفقة التي كان يجري عليه، وقال:والله لا أنزعها منه أبدا. قالت عائشة رضي الله عنها:وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «يا زينب، ما علمت وما رأيت؟» فقالت:يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها الا خيرا. وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم– فعصمها الله تعالى بالورع. قالت:فطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الافك.

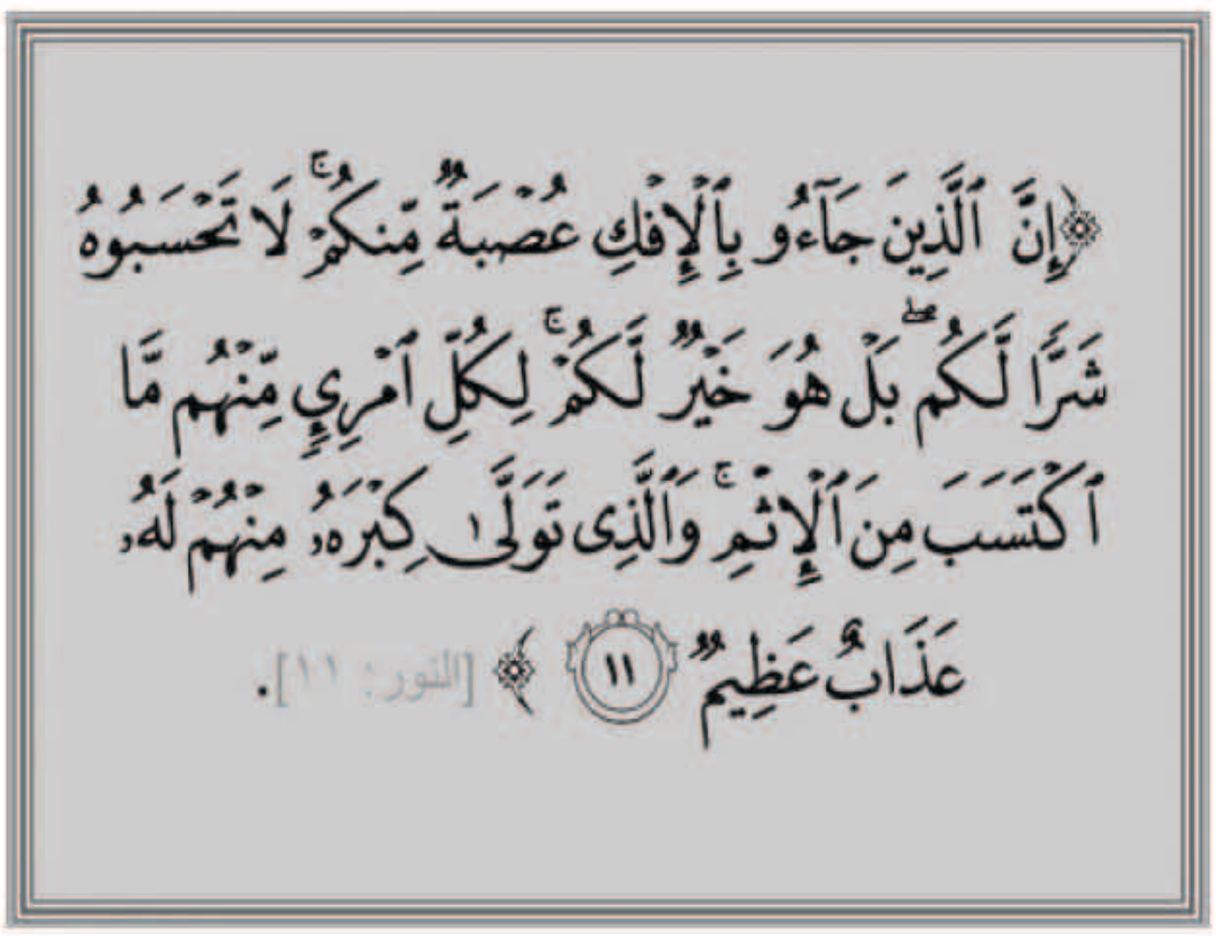

أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية، من الرحمة والحلم والحكمة والحزم، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والرسول صلى الله عليه وسلم قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزوجة المثالية؛ لأنه قدوة للعالمين وخاصة للدعاة إلى الله، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما ينبغي لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يسعون لتحقيقها.

إن السيدة خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة، ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسالة، هم على ضياع أمته، وانتشار الفساد، وزيادة شوكة أهله، وهم لما يصيب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من مؤامرات، وظلم وجوع، وإذلال، وما يصيب الدعاة منهم من تشريد وتضييق وتنكيل، وبعد ذلك هو صاحب رسالة واجب عليه تبليغها للآخرين، وهذا الواجب يتطلب وقتا طويلا يأخذ عليه أوقات نومه وراحته، وأوقات زوجته وأبنائه، ويتطلب تضحية بالمال والوقت والدنيا بأسرها ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته، وإن أوتيت الزوجة من الأخلاق والتقوى والجمال والحسب ما أوتيت، إنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تمامًا ما يقوم به الزوج وما يتحمله من أعباء، وما يعانيه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقا وشوكة في طريقه.

إن المرأة الصالحة لها أثر في نجاح الدعوة، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها وما قامت به من الوقوف بجانب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك في أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك أهم من نجاحه مع الآخرين وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

سابعًا: وفاء النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا عاليًا للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة، في حياتها وبعد مماتها، وقد بشرها صلى الله عليه وسلم ببيت في الجنة في حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا، وسلام جبريل عليه السلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام –أو طعام أو شراب– فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، عز وجل، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها الولد».

وأظهر صلى الله عليه وسلم البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذنت عليه لتذكره خديجة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد» فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها، وأظهر صلى الله عليه وسلم الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبين أن حفظ العهد من الإيمان.

الله سبحانه أمر نبيه بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته

الهدوء والتدرج والسرية أهم خصائص بناء المسلمين في الفترة المكية

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكية يتم بكل هدوء وتدرج وسرية، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل المتمثل في قوله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» فالآية الكريمة تأمر النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم، خاصة ان كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصييرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وأن لا يغرر به مغرر ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم منتقصًا، ولا يطيع فيهم متكبرًا، أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها.

ان الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى والتي من أهمها:

أ– الصبر في قوله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ»: ان كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي– صلى الله عليه وسلم–، ويوصي الناس بها بعضهم بعضا، وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» (العصر) فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران الا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

1 – الايمان بالله. 2 – العمل الصالح.

3 – التواصي بالحق.

4 – التواصي بالصبر.

لأن نجاة الانسان لا تكون الا اذا أكمل الانسان نفسه بالايمان والعمل الصالح، وأكمل غيره بالنصح والارشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، «والتواصي بالصبر كذلك ضرورة: فالقيام على الايمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولابد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية».

ب– كثرة الدعاء والالحاح على الله: وهذا يظهر في قوله تعالى: «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» فالدعاء باب عظيم، فاذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلا بد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة، على حسن الصلة بالله، وكثرة الدعاء؛ لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر.

ج– الإخلاص: ويظهر في قوله تعالى: «يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، ولا بد عند اعداد الأفراد اعدادًا ربانيًا أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله، وأعماله، وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته، من غير نظر الى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو تقدم، أو تأخر، وحتى يصبح جنديًا من أجل العقيدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: 162–163) ان الاخلاص ركن من أركن قبول العمل، ومعلوم أن العمل عند الله لا يقبل الا بالاخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنة والشرع.

د– الثبات: ويظهر في قوله تعالى: «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف:28).

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم، ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب: 23).

ففي الآيات الكريمة ثلاث صفات، ايمان، ورجولة، وصدق. وهذه العناصر مهمة للثبات على المنهج الحق؛ لأن الايمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، ويبعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، والرجولة محركان للنفس نحو هذا الهدف غير مهتمة بالصغائر والصغار، وانما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى، والمبدأ الرفيع والصدق يحولان دون التحول أو التغيير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لا يتلون معه الانسان، وان رأى حبل شعاع السيف على رقبته، أو رأى حبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها.

ولا شك في أن اللبنات التي تعد لحمل الدعوة، واقامة الدولة، وصناعة الحضارة تحتاج الى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية، والغايات الجميلة والقيم الرفيعة.

هذه من أهم الصفات التي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

ثامنًا: انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها:

كان انتشار الاسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة من دون أن يوجد ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي اذا أفقدت الاسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فانها في الوقت نفسه لم تؤلب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت اليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الاسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبوبكر الصديق من (تيم)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، والزبير بن العوام من (بني أسد)، ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم)، وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة)، وسعيد بن زيد من (بني عدي)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمح)، بل ان عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من (هُذيل)، وعتبة بن غزوان من (مازن)، وعبد الله بن قيس من (الأشعريين)، وعمار بن ياسر من (عنس) من مَذحج، وزيد بن حارثة من (كلب)، والطفيل بن عمرو من (دوس)، وعمرو بن عبسة من (سليم)، وصهيب النمري من (بني النمر بن قاسط)، لقد كان واضحا أن الاسلام لم يكن خاصًا بمكة.

لقد شق النبي –صلى الله عليه وسلم– طريقه بكل تخطيط ودقة، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والاعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة الى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لاقامة الحجة على العالمين، وانقاذ من شاء الله انقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية، الى نور الاسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها، منذ خطواتها الأولى، حيث ان القرآن المكي بين شمول الدعوة وعالميتها: قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (ص: 87).

وقال تعالى: «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (القلم: 52).

ان الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى، وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها، الاعلان والصدع، والبلاغ، والبيان، والانذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والايذاء والقتل.

ان استسرار النبي –صلى الله عليه وسلم –في دعوته أول الأمر، انما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة وضعفها وغربتها، وينبغي أن يفهم هذا ضمن هذا الاطار.

وان كان الكتمان والاستسرار، سياسة مصلحية في كثير من أمور الاسلام في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع، والا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات، فهو أمر مصلحي، خاضع للنظر والاجتهاد البشري، اذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ، ومن ذلك مثلا معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرًا متى كانت المصلحة في ذلك مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ؛ ولهذا فان النبي –صلى الله عليه وسلم –حتى بعد أن صدع بدعوته، وأنذر الناس وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها ازاء الكيد الجاهلي.